باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. آمين.

أحبائي الآباء الكهنة، والشمامسة، والخدام، وأعضاء مجالس الكنائس، وجميع أبناء وبنات الكنيسة، نعمة وسلام من ربنا يسوع المسيح، الذي في مثل هذه الليلة وُلد في بيت لحم من أجل خلاصنا.

إذ نجتمع لنحتفل بعيد الميلاد المجيد، لنتذكر ونتأمل من جديد سرّ المحبة الإلهية التي ظهرت في الجسد.

«وَلَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ ٱللَّهُ ٱبْنَهُ، مَوْلُودًا مِنِ ٱمْرَأَةٍ، مَوْلُودًا تَحْتَ ٱلنَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ ٱلَّذِينَ تَحْتَ ٱلنَّامُوسِ، لِنَنَالَ ٱلتَّبَنِّي.» (غلاطية ٤: ٤–٥)

في بلدة بيت لحم الصغيرة، التقى السماء بالأرض؛ تواضع غير المحدود وأخذ صورة عبد، لكي تعرف البشرية عمق محبة الله التي لا تُدرك. لذلك، فإن احتفالنا الليلة ليس مجرد إحياء لذكرى حدث تاريخي، بل هو دعوة للدخول في تلك المحبة عينها التي من أجلها جاء المسيح.

وكما يكتب القديس أثناسيوس الرسولي في كتابه الخالد «تجسّد الكلمة»:

«لأننا نحن كنا غاية تجسّده، ومن أجل خلاصنا أحبّ البشر حتى جاء وظهر في جسدٍ بشري.» (القديس أثناسيوس الرسولي)

يتساءل كثيرون اليوم: ماذا يعني حقًا أن يكون الإنسان مسيحيًا؟ هل الهدف هو مجرد حضور الكنيسة، أو الصوم، أو الصلاة، أو قراءة الكتاب المقدس؟

مع أن جميع هذه الممارسات ضرورية لبناء الحياة الروحية، إلا أنها ليست الهدف في ذاتها. إنها وسائل تؤدي إلى غاية، وليست الغاية نفسها. فالغاية من الحياة المسيحية كلها هي المحبة: محبة الله ومحبة القريب.

«وَتُحِبُّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. هٰذِهِ هِيَ ٱلْوَصِيَّةُ ٱلْأُولَى. وَٱلثَّانِيَةُ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَتْ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ.» (مرقس ١٢: ٣٠–٣١)

جاء ربنا في رسالة محبة. لمس الأبرص، وتحدث مع الخاطئ، وفتح باب الملكوت للأمم. لم تكن محبته نظرية، بل ملموسة—محبة بشّرت المساكين، وشفَت المنكسري القلوب، وحررت المأسورين. وهذه هي الرسالة نفسها التي يرسلنا بها:

«كَمَا أَرْسَلَنِي ٱلْآبُ، أُرْسِلُكُمْ أَنَا.» (يوحنا ٢٠: ٢١)

كل ما نفعله—صلواتنا، وأصوامنا، وخدمتنا، واشتراكنا في الأسرار المقدسة—تستمد قيمتها من كونها تقودنا إلى محبة أعظم لله ومحبة أعمق للقريب. وبدون المحبة تصبح كل هذه الممارسات بلا معنى.

«إِنْ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ وَٱلْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَقَدْ صِرْتُ نُحَاسًا يَطِنُّ أَوْ صَنْجًا يَرِنُّ. وَإِنْ كَانَتْ لِي نُبُوَّةٌ، وَأَعْلَمَ جَمِيعَ ٱلْأَسْرَارِ وَكُلَّ عِلْمٍ، وَإِنْ كَانَ لِي كُلُّ ٱلْإِيمَانِ حَتَّى أَنْقُلَ ٱلْجِبَالَ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئًا. وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي، وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أُحْتَرَقَ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلَا أَنْتَفِعُ شَيْئًا.» (١ كورنثوس ١٣: ١–٣)

لهذا يتحدانا تجسّد ربنا، لأنه محبة في عمل. فالميلاد ليس قصة إله يحب من بعيد، بل إله يقترب. الذي يحمل السماوات لُفَّ بأقمطة؛ والذي يعضد الخليقة كلها رُضِع من صدر العذراء. في ذلك المذود، لبست المحبة الإلهية ضعف الطبيعة البشرية وقدّسته.

وكما يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي:

«**يُلفّ بأقمطة فقيرة، لكنه يحلّ قيود خطايانا. يوضع في مذود، لكنه يُعبد من الملائكة. يهرب من هيرودس، لكنه يخلّصنا من الموت.**» (القديس غريغوريوس اللاهوتي)

صار الكلمة جسدًا ليُظهر لنا أن المحبة ليست شعورًا، بل رسالة.

ولكن كم مرة نعجز عن أن نحب كما أحب المسيح؟

بعضنا يفشل في محبة الآخرين لأنه لم يتعلم بعد أن يقبل محبة الله له. نرى خطايانا وإخفاقاتنا وعدم استحقاقنا، ونتخيل أن الله يرانا بالطريقة نفسها. لكن رسالة الميلاد تعلن العكس تمامًا:

«**مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ.**»(إرميا ٣١: ٣)

تأملوا أمًّا تنحني لتغسل طفلها. مهما اتّسخ الطفل، لا تتزعزع محبتها له. هكذا ينحني الله إلينا، ويغسل دنس خطايانا بدمه الكريم. لا شيء فينا ينفّره، ولا شيء نفعله يستطيع أن يمنعه عن محبتنا.

«**كما أن حفنة من الرمل إذا أُلقيت في البحر العظيم لا تُقاس بشيء، هكذا خطايا الجسد أمام عقل الله. وكما أن نبعًا قوي الجريان لا يعكّره قليل من الغبار، كذلك رحمة الخالق لا تُعاق بذنوب خليقته.**» (القديس إسحق السرياني)

لذلك يا أحبائي، لنتقبّل أنفسنا كما يقبلنا الله—لا بكبرياء، بل بشكر. لأنه فقط عندما نقبل محبته نستطيع أن نعطيها بحرية.

وفي الوقت نفسه، يجب ألا تتحول محبة الذات إلى أنانية. فالمحبة عندما تنغلق على ذاتها تموت. المحبة الحقيقية لا تكون إلا عندما تُعطى.

«**إن لم تجد المسيح في الفقير عند باب الكنيسة، فلن تجده في الكأس.**» (القديس يوحنا ذهبي الفم)

كثيرًا ما شبّه الآباء النفس بالماء: فإذا كان راكدًا ومنغلقًا على ذاته فسد، أما إذا جرى كنهر، فإنه يهب الحياة لكل ما يمرّ به. هكذا يجب أن نصير نحن أيضًا أنهارًا من المحبة الإلهية، نأخذ من الله ونفيض على العالم من حولنا.

فيا أحبائي، ونحن نحتفل بعيد الميلاد المجيد، لنجدد اشتراكنا في رسالة المسيح، رسالة المحبة. إن عالمنا اليوم مملوء بالانقسام والعزلة والخوف. وما يحتاجه أكثر من أي شيء ليس الجدل أو الخصام، بل المحبة المتجسدة—محبة تصغي، وتخدم، وتغفر، وتعطي.

«**بِهَذَا يَعْرِفُ ٱلْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلَامِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ.**» (يوحنا ١٣: ٣٥)

لتشرق أنوار المذود في بيوتكم، وتعضد عائلاتكم، وتملأ قلوبكم بفرح حضوره. وليحلّ سلام المسيح المولود في وسطكم، ويجعلكم أدوات لمحبته الإلهية في هذا العالم.

بشفاعة العذراء الطاهرة، والدة الإله وأم النور، القديسة مريم، وبصلوات الشيخ البار القديس يوسف النجار، وبصلوات أبينا وراعينا القديس، قداسة البابا تواضروس الثاني، عيد ميلاد مجيد لكم جميعًا.

الأنبا بيتر

أسقف إيبارشية نورث وساوث كارولاينا وكنتاكي

والنائب البابوي لكنائس فرجينيا